

# الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع الحضري

تأليف

مدرس الدكتور محمد لوتي

أكتوبر 2, 2025

اقتبس من هذا المقال

مدرس الدكتور محمد لوتي (2025). الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع الحضري. عرب سايكولوجي. تم الاسترجاع من <https://arabpsychology.com/?p=1781>

الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع الحضري: المدخل الإيكولوجي

## التعريف الجوهرى للمدخل الإيكولوجي في علم الاجتماع الحضري

تمثل الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع الحضري تحولاً نوعياً عن المقاربات التفسيرية والفلسفية التي كانت سائدة في المراحل الأولى من تطور هذا الحقل المعرفي. فقد أدرك الباحثون والمفكرون، مع تعقد الظواهر الحضرية وتزايد تأثير المدينة على حياة سكانها، ضرورة التعمق في تحليل التفاعلات المعقدة والمتعددة الأوجه بين الأفراد والبيئة الحضرية. هذا الإدراك لم يقتصر على طرح تساؤلات نقدية حول النظريات السابقة فحسب، بل شكل أيضاً دافعاً قوياً لإعادة النظر في بنية المدينة وديناميكياتها من منظور جديد يركز على الملاحظة المباشرة والتحليل التجريبي. ومن رحم هذه النقلة المنهجية والنظرية، ظهر ما يُعرف بالمدخل الإيكولوجي، الذي يضع دراسة التفاعلات المتبادلة بين الإنسان وبيئته الحضرية في صميم فهم الظواهر الاجتماعية التي تتجلى داخل المدن.

إن مصطلح الإيكولوجيا، المستمد من الكلمة اليونانية "Oikos" التي تعني المنزل أو المكان الذي نعيش فيه، يُشير في جوهره إلى العلم الذي يدرس العلاقات المعقدة بين الكائنات الحية وبيئاتها. وعند تطبيق هذا المفهوم على السياق البشري، تتسع دلالاته ليشمل ليس فقط العوامل البيئية الطبيعية والمكانية، بل يتعداها إلى جميع الأنشطة والفعاليات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تشكل مجال حياة الإنسان ضمن محيطه الحضري. ومن هنا، تبرز الإيكولوجيا البشرية كفرع متخصص ضمن علم الاجتماع الحضري، يركز على دراسة العلاقات المتشابكة بين الجماعات البشرية وبيئاتها الحضرية. وتهدف هذه المقاربة إلى فهم كيف تؤثر الظروف الحضرية على سلوك الأفراد والجماعات، وكيف يؤدي التكيف البشري مع البيئة الطبيعية والمبنية إلى تقسيمات وتميزات في البناء المكاني للمدينة، مما يجعل المدينة نظاماً حيوياً يتطور ويتغير بفعل عمليات شبه طبيعية تؤثر في توزيع السكان والمؤسسات داخلها.

## السياق التاريخي وتطور المدخل الإيكولوجي

يُعزى الفضل في تأسيس وتطوير المدخل الإيكولوجي في علم الاجتماع الحضري بشكل كبير إلى جهود مجموعة من الباحثين الرواد، أبرزهم روبرت بارك وإرنست بيرجس، اللذين كانا من الشخصيات المحورية في مدرسة شيكاغو في أوائل القرن العشرين. لقد جاءت أفكارهم كاستجابة لدافعين أساسيين شكلا حجر الزاوية في مقاربتهم للظواهر الحضرية. الدافع الأول تمثل في إدراك أن المدينة، بكونها حاضنة للحدثة والتطور، تنتج باستمرار طرقاً جديدة للحياة وأنماطاً سلوكية مبتكرة وغير مألوفة، مما استلزم من علماء الاجتماع البحث عن وسائل منهجية جديدة لاكتشاف هذه الأنماط. وقد استلهموا في ذلك منهجيات علماء الأنثروبولوجيا في دراسة القبائل البدائية، والتي تركز على الملاحظة المباشرة والدقيقة للواقع الاجتماعي. أما الدافع الثاني، فقد تجسد في الظروف الاجتماعية الجديدة والمشكلات الحضرية المعقدة التي ظهرت مع النمو الصناعي السريع والتوسع العمراني غير المسبوق، مما استدعى تشخيصات متخصصة ومعقدة لهذه المشكلات لفهم جذورها وتقديم حلول لها.

على الرغم من أن مصطلح "إيكولوجيا" قد ظهر لأول مرة على يد عالم الأحياء الألماني إرنست هيكل في عام 1868 ضمن كتابه "تاريخ الخلق" للإشارة إلى دراسة الكائنات الحية وبيئاتها الطبيعية، إلا أن تطبيقه على دراسة المجتمعات البشرية، وتحديدًا في السياق الحضري، تبلور بشكل واضح على يد علماء مدرسة شيكاغو. ففي عام 1915، قدم روبرت بارك تحليلاً رائداً للمدينة، واصفاً إياها بأنها "ظاهرة طبيعية" تنشأ وتتطور بفعل عوامل متعددة تتجاوز الإرادة البشرية الفردية ولا يمكن السيطرة عليها بسهولة. وقد تصور بارك أن كل مدينة تنقسم إلى مناطق صناعية وتجارية وسكنية، وتتميز كل منطقة بخصائص اجتماعية وثقافية فريدة تميزها عن غيرها. ورأى أن هذه الخصائص لا تطبع سكان كل منطقة فحسب، بل تتجمع هذه الخصائص في جماعات معينة ضمن مناطق محددة، مما يمنح المدينة طابعاً فسيفسائياً من الوحدات

الاجتماعية المتميزة والمتداخلة، كل منها يتكيف مع بيئته بطريقته الخاصة.

### إسهامات روبرت بارك في الإيكولوجيا الحضرية

يُعد روبرت بارك أحد أبرز رواد مدرسة شيكاغو، وقد تمحورت أفكاره الأساسية حول إدخال مفهوم الإيكولوجيا البشرية إلى دراسة المدينة، مما أحدث نقلة نوعية في علم الاجتماع الحضري. ففي مقالته الشهيرة "المدينة" عام 1916، وضع بارك أسساً منهجية ونظرية متينة لهذا الحقل، داعياً إلى ضرورة أن يركز البحث الحضري على أساس الملاحظة المنظمة والمباشرة للظواهر الحضرية، على غرار المنهجيات التي يتبعها المتخصصون في الأنثروبولوجيا عند دراسة المجتمعات البدائية. وقد أكد بارك على وجود قوى خفية تتحكم في توزيع الأفراد والمؤسسات داخل البيئة الحضرية، معتبراً أن هذه القوى عبارة عن عوامل تمارس تأثيرها على الإنسان بطريقة مختلفة عن تأثير الطبيعة على النباتات، مشيراً إلى أن التفاعل البشري مع البيئة يتسم بالتعقيد ويدخل فيه البعد الثقافي والأخلاقي بشكل عميق.

لقد تبلورت لدى بارك فكرتان أساسيتان شكلتا محور تحليله للمدينة. الأولى، تتعلق بالتأثير العميق الذي تمارسه ظروف العيش في المدن على سلوك الأفراد وتشكيل شخصياتهم، فالمدينة ليست مجرد خلفية محايدة للأحداث الجارية، بل هي فاعل نشط ومؤثر يشكل أنماط السلوك والتفكير. والثانية، تتناول الآليات والوسائل التي من خلالها يؤدي التكيف البشري للبيئة الطبيعية والمبنية إلى انقسام في بناء المدينة وتمييزها إلى مناطق طبيعية تتلاءم مع الأنماط البشرية المختلفة، مما يخلق تخصصاً وظيفياً ومكانياً. وقد سعى بارك إلى فهم المدينة بوصفها مكاناً جغرافياً وهندسياً تظهر فيه التقسيمات الاجتماعية بناءً على طبيعة المكان ومدى ملاءمته للأفراد، بالإضافة إلى اعتباره المدينة نظاماً أخلاقياً. هذا النظام الأخلاقي يسير جنباً إلى جنب مع التنظيم الطبيعي أو المكاني، حيث تتجذر خصائص المدينة المعقدة في الطبيعة البشرية وقيمها، مما يجعل فهم المدينة مرتبطاً بشكل وثيق بفهم القيم والمعايير التي تحكم تفاعلات سكانها اليومية.

لقد رأى روبرت بارك أن المدن، بمجرد قيامها وتطورها، تعمل كآلية انتقائية تختار من مجموع السكان الأفراد الأكثر ملاءمة وقدرة على العيش والتكيف في منطقة محددة وبيئة متميزة. وقد حدد بارك مجموعة من العمليات الإيكولوجية الديناميكية التي تساهم في اتساع المدن وتناميها وتشكيل بنيتها، وهي: المنافسة، التي تدفع الأفراد والجماعات للتنافس على الموارد والمساحات الحضرية المحدودة؛ والغزو، حيث تغزو جماعة معينة منطقة معينة لتحل محل جماعة أخرى كانت تقطنها؛ والتعاقب، وهي العملية التي تلي الغزو وتتضمن استقرار الجماعة الجديدة وتكيفها مع البيئة المحلية، ثم تكرار هذه الدورة في مناطق أخرى. هذه العمليات تحدث وفق قوانين تشبه القوانين البيولوجية، وتؤدي إلى نشأة الأحياء السكنية وتكيف سكانها لتدبير معيشتهم. ومع اتساع المدن، يبدأ القاطنون الأوائل بالتحرك خارج المركز والانتشار في الضواحي. بناءً على تحليلاته، توصل بارك إلى مجموعة من الخصائص المحددة للمدينة بوصفها بنية مكانية وثقافية معقدة:

للمدينة بناء تجاري مميز، يرجع الفضل فيه إلى نشأة السوق كموقع محوري للتجارة والتبادل الاقتصادي، وهذا التصور يقترب كثيراً من الأفكار التي طرحها علماء الاجتماع الأوائل مثل ماكس فيبر حول أهمية الأنشطة الاقتصادية في تشكيل المدن.

للمدينة بناء رسمي يتجلى فيه بوضوح وجود البيروقراطيات المعقدة والمنظمات الإدارية، فضلاً عن المؤسسات القضائية والتنفيذية التي تضمن تنظيم الحياة العامة وتطبيق القوانين، مما يعكس طابعها التنظيمي المتقدم. للمدينة تأثير نفسي عميق تمارسه على الأفراد، وهو البعد الذي أشار إليه أستاذه جورج زيمل في تحليلاته حول الحياة العقلية للمدينة وتأثيرها على الفردية والعلاقات الاجتماعية.

### إسهامات إرنست بيرجس: نموذج الدوائر المركزية

شارك إرنست بيرجس زميله روبرت بارك في تصورات ومفاهيمه الإيكولوجية الأساسية، وقد وجد المدخل الإيكولوجي

طريقه في التطبيق العملي والتحليل التجريبي على يديه. ففي الكتاب الذي اشترك فيه بيرجس مع بارك عام 1921، "مقدمة في علم الاجتماع"، قدم بيرجس تمييزاً مهماً بين مصطلحي المجتمع المحلي (Community) والمجتمع (Society)، وهي أفكار كانت قد ظهرت في أعمال سابقة، لا سيما عند عالم الاجتماع الألماني فرديناند تونيز. وبما أن المجتمع المحلي يمثل المظهر المكاني الملموس للجماعات الإنسانية وتفاعلاتها، فقد اعتبره بيرجس بؤرة الاهتمام الرئيسية لأي دراسة إيكولوجية تهدف إلى فهم ديناميكيات الحياة الحضرية.

لم ينظر بيرجس إلى البناء الإيكولوجي للمدينة بوصفه جانباً ساكناً أو استاتيكيًا، بل اعتبره عملية ديناميكية مستمرة تتجسد بوضوح في النمو الفيزيقي المستمر للمدينة. ويتمثل هذا النمو في التوسع المكاني للمدينة من مركزها إلى أطرافها، وهو المحور الرئيسي لاهتمام بيرجس البحثي. فقد بحث هذا الجانب بمزيد من الإحاطة والعمق، وعمم اهتمامه من التوسع المكاني ليشمل أيضاً الأثر الذي يتركه هذا التوسع على التنظيم الاجتماعي للمجتمعات الحضرية وتشكيل الشخصية الحضرية لسكانها. ولفهم وقياس هذا النمو السريع والتوسع المكاني في المدينة بشكل منهجي، حدد بيرجس مؤشراً رئيسياً هو الحراك أو التنقل السكاني، بينما اتخذ من قيمة الأرض مؤشراً ومقياساً ملموساً لهذا الحراك. فكلما كانت عملية التنقل داخل المدينة سهلة ومرنة، كانت بالمقابل عملية التوسع المكاني متوازنة ومستقرة، دون إحداث تفكك اجتماعي قد يسفر عنه ظواهر حضرية منحرفة أو مشكلات اجتماعية معقدة.

لتوضيح التغيرات في البناء الإيكولوجي للمدينة والأنماط المكانية المتميزة الناتجة عنها، قدم إرنست بيرجس تصوراً لمدينة شيكاغو بوصفها نموذجاً مثالياً يمكن تعميمه لفهم النمو الحضري. هذا النموذج، المعروف بنموذج الدوائر المركزية، احتوى على مجموعة من الدوائر أو الحلقات الدائرية (Zones) المتتابعة التي تمتد من المركز إلى الأطراف في خمس دوائر متمركزة. وتمثل كل حلقة نمطاً مكانياً ذا خصائص وظيفية واجتماعية محددة ومختلفة عن الأخرى، مما يعكس التمايز الوظيفي والاجتماعي داخل المدينة. وقد افترض بيرجس أن استخدام الأرض في كل منطقة من هذه المناطق يتم عبر عملية معقدة من التنافس بين الجماعات والأنشطة المختلفة، تليها عمليات الغزو التي تدفع بالمناطق الداخلية إلى التوسع وغزو المناطق المحيطة بها، ثم تحصل عملية التعاقب بين هذه الدوائر مع انتقال السكان والأنشطة. وبناءً على هذه العمليات الإيكولوجية، تحدث بالضرورة عملية إعادة توزيع الأفراد والجماعات والأنشطة والمواقع السكنية، ويُفسر ذلك بعوامل شبيهة اجتماعية مثل النمو السكاني، والتغير التكنولوجي، والميول الفطرية البشرية كالاتجاه الطبيعي المزعوم للتنافس على المكان داخل المدينة.

### مثال عملي: تطبيق نموذج الدوائر المركزية

لتوضيح كيفية عمل المدخل الإيكولوجي ونموذج الدوائر المركزية لبيرجس في سياق واقعي ملموس، يمكننا تخيل مدينة كبيرة مثل شيكاغو في أوائل القرن العشرين، وهي المدينة التي استند إليها بيرجس في تطوير نموذجها. في هذه المدينة، نجد أن المنطقة المركزية أو الدائرة الأولى هي المنطقة التجارية المركزية (Central Business District)، حيث تتركز جميع الأنشطة الاقتصادية والإدارية والمالية والترفيهية، وتتميز بارتفاع قيمة الأراضي وكثافة استخدامها. حول هذه المنطقة مباشرة، تقع منطقة الانتقال (Zone of Transition) أو الدائرة الثانية، والتي تتميز بمزيج من المساكن القديمة المتدهورة والمصانع الصغيرة وورش العمل. هذه المنطقة غالباً ما تكون نقطة دخول رئيسية للمهاجرين الجدد والطبقات الاجتماعية الفقيرة، وتتميز بارتفاع معدلات الجريمة والفوضى الاجتماعية، نظراً لعدم استقرار سكانها وضعف روابطهم المجتمعية.

بشكل تدريجي، ومع تحسن الظروف الاقتصادية والاجتماعية لبعض الجماعات المقيمة في منطقة الانتقال، تبدأ عملية الغزو والتعاقب في دفعهم نحو الخارج. على سبيل المثال، قد يهاجر السكان الذين تحسنت أوضاعهم من منطقة الانتقال إلى منطقة مساكن العمال (Zone of Workingmen's Homes) أو الدائرة الثالثة، التي توفر مساكن أفضل بأسعار معقولة نسبياً، وتكون موطناً للطبقة العاملة المستقرة. تستمر هذه الحركة نحو الخارج، حيث يتجه السكان الأكثر يسراً والطبقات

المتوسطة نحو المنطقة السكنية (Residential Zone) أو الدائرة الرابعة، التي تضم منازل أكبر وأكثر فخامة وتتميز ببيئة سكنية أكثر استقراراً. وأخيراً، في أقصى الضواحي المحيطة بالمدينة، توجد منطقة الضواحي أو الركاب (Commuter Zone) أو الدائرة الخامسة، حيث يعيش الأفراد الذين يفضلون العيش في بيئات أكثر هدوءاً واتساعاً، ويركبون وسائل النقل يومياً إلى أعمالهم في مركز المدينة. هذا النمط من التوسع والحركة الدائرية، مدفوعاً بالتنافس المستمر على الموارد والمساحات، يعكس بوضوح كيف تتشكل المدينة وتتطور عبر عمليات إيكولوجية ديناميكية تؤثر على التركيبة الاجتماعية والثقافية لكل منطقة داخلها، وتؤثر بالتالي على أنماط حياة سكانها.

## الأهمية والتأثير

لقد كان المدخل الإيكولوجي، وخصوصاً الأعمال الرائدة لروبرت بارك وإرنست بيرجس، ذا تأثير عميق ومستمر على تطور علم الاجتماع الحضري ككل. فقد قدم هذا المدخل إطاراً منهجياً قوياً ومبتكراً لفهم كيفية نمو المدن وتطورها الفيزيقي والاجتماعي، وكيف تؤثر البيئة المادية والاجتماعية على أنماط الحياة والسلوكيات الحضرية المعقدة. قبل ظهور هذا المدخل، كانت الدراسات الحضرية غالباً ما تقتصر على النظريات المجردة والتفسيرات الفلسفية، لكن الإيكولوجيا البشرية نقلت التركيز إلى الملاحظة المباشرة والتحليل التجريبي للظواهر الحضرية، مما أضفى عليها طابعاً علمياً أكثر دقة وعملية، وجعلها قادرة على إنتاج معرفة قابلة للتحقق.

تكمُن أهمية هذا المدخل أيضاً في قدرته الفريدة على تفسير العديد من المشكلات الحضرية المتجذرة في بنية المدينة، مثل ارتفاع معدلات الجريمة، وانتشار الفقر، وظاهرة التفكك الاجتماعي، من خلال ربطها بالترتيبات المكانية والعمليات الإيكولوجية الديناميكية داخل المدينة. على سبيل المثال، تفسر "منطقة الانتقال" في نموذج بيرجس ارتفاع معدلات الجريمة والاضطرابات الاجتماعية بكونها منطقة غير مستقرة تشهد تدفقاً مستمراً للمهاجرين وتنافساً شديداً على الموارد المحدودة، مما يضعف الروابط الاجتماعية. هذا الفهم العميق أثر بشكل كبير على مجالات تطبيقية متعددة، منها التخطيط الحضري والسياسات الاجتماعية، حيث ساعد المخططين وصانعي القرار على تطوير استراتيجيات أكثر فعالية للتعامل مع تحديات التوسع الحضري، وتحسين الظروف المعيشية في المناطق المحرومة، وتعزيز الانسجام الاجتماعي من خلال فهم أعمق لديناميكيات المكان والسكان وتأثيرها المتبادل.

## الروابط والعلاقات بالمفاهيم الأخرى

يرتبط المدخل الإيكولوجي في علم الاجتماع الحضري بالعديد من المفاهيم والنظريات الاجتماعية الأخرى، مما يجعله نقطة تقاطع غنية للدراسات متعددة التخصصات. من أبرز هذه الروابط هي علاقته بنظرية الفوضى الاجتماعية (Social Disorganization Theory)، التي طورتها مدرسة شيكاغو أيضاً. تفترض هذه النظرية أن التغيرات البيئية السريعة والتحويلات السكانية المستمرة، مثل النمو الحضري غير المنظم والتنقل السكاني المستمر في مناطق الانتقال، يمكن أن تضعف الروابط الاجتماعية والمؤسسات المحلية كالعائلة والمدرسة والحي، مما يؤدي إلى ارتفاع معدلات الجريمة والانحراف. وبهذا، تُعد العمليات الإيكولوجية كالغزو والتعاقب عوامل أساسية في خلق بيئات تتسم بالفوضى الاجتماعية وضعف الرقابة المجتمعية.

كما يتصل المدخل الإيكولوجي بمفهوم التحضر (Urbanization) الأوسع، والذي يشير إلى عملية نمو المدن وزيادة نسبة السكان الذين يعيشون في المناطق الحضرية. تقدم الإيكولوجيا البشرية أدوات تحليلية بالغة الأهمية لفهم الأنماط المكانية والاجتماعية المعقدة التي تنتج عن هذه العملية، وكيف تتشكل المدن وتتكيف مع الزيادة السكانية والتغيرات الاقتصادية والثقافية والتقنية. ويُعد هذا المدخل جزءاً أساسياً من دراسات المجتمع المحلي (Community Studies)، التي تركز على تحليل الوحدات الاجتماعية الصغيرة داخل المدن، وكيف تتفاعل هذه الوحدات مع بيئتها المادية والاجتماعية لتشكل

هويتها وخصائصها المميزة. وعلى نطاق أوسع، تندرج الإيكولوجيا البشرية ضمن مجال علم اجتماع الفضاء (Spatial Sociology)، الذي يدرس العلاقة الجدلية بين الفضاء الاجتماعي والبناء الاجتماعي، وكيف يُنظم الفضاء ويُستخدم ليعكس أو يؤثر على العلاقات الاجتماعية، الهياكل الطبقيّة، وأنماط السلطة داخل المجتمعات.

بالإضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من أن المدخل الإيكولوجي يركز بشكل أساسي على الجوانب المكانية والمادية، فإنه يحمل بعض الصلات غير المباشرة بالتفاعلية الرمزية (Symbolic Interactionism)، وهي نظرية اجتماعية أخرى انبثقت من مدرسة شيكاغو. فعندما تحدث روبرت بارك عن المدينة كنظام أخلاقي، فإنه يشير ضمناً إلى دور المعاني المشتركة والقيم والرموز التي تتشكل في بيئات حضرية معينة وتؤثر على سلوك الأفراد وتفاعلاتهم وتصوراتهم الذاتية. بشكل عام، ينتمي المدخل الإيكولوجي إلى الفرع الأوسع من علم الاجتماع، وتحديداً إلى علم الاجتماع الحضري والإيكولوجيا البشرية، ويقدم إطاراً تحليلياً مهماً لفهم التداخل المعقد بين البيئة الحضرية المادية والاجتماعية والسلوك الإنساني والظواهر الاجتماعية الناتجة عن هذا التفاعل في سياق المدينة الحديثة.